الهدهد

عمرو عاطف رمضان

"وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لاَ أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ. لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ".

قرآن كريم.

****

السنةُ الثانية من الغُربة، والجو شتاء..

لا يعرفُ لماذا يقومُ في الصباح، ولماذا لا ينامُ في المساء. يظلُّ مُضطجعاً على ظهرهِ يتطلَّعُ في اللاشيءِ الضيقِ الخانِق.. لا هَمسَ في الشقة الفارغة المُوحشة.. يكادُ يُجَنّ. كان يحب الهدوءَ والسكينة دائماً ويحب الوحدة على عِلاَّتِها. والآن هُوَ نادمٌ على تلك الأمنية التي تمناها يوماً بأن يزرقه الله الوحدة والعزلة. ما بال هذه السكينة الصاخبة تأكلُ العقل أكلاً؟! وما بال هذه الوحدة الضيقة كأنها رائحة عرقٍ بلا رائحة؟! يضطجع يميناً ويساراً كدجاجة تُشوى على النار حتى يستسلم إلى النوم أو يستسلم النوم له.

يومٌ جديد، هو سابقُ الأيام ولاحقها كأن العالم هو يومٌ واحد طويلٌ! يصيح عقله في كلِ صباحٍ ثقيلٍ، يقول يا ربِ أين السبيل؟! لابُدَّ أنه هناك وإلا فلماذا خُلق؟ ولماذا اغتَرَب عن أهله؟ لم يكُن كل هذا هباءاً فليس في الكون شيءٌ اسمه الفراغ؟ لابد من ذلك.. وإلا فهل تُلقى الاقدارُ هكذا عاريةً في بردِ الفراغ؟!

عندما فَتَحَ بابَ الشقَّة خارجاً يتذكر أنه يمشي مسافته اليومية الطويلة على قدميه بدون تناول إفطاره فتضطرب معدته، لا يقدر على تناول الطعام في الصباح أبداً، ثمَّة غثيانٍ يَمنَعُهُ من هذا كلَّ صَباح. ما إن يَضَعَ قدميه خارج بوابة العمارة المظلمة حتى تكادُ تطءُ جسداً تحته لولا أن يتحرك ويُسرع مُبتعداً. عندما يتطلع في الجسد الطائر أمامه يراه هُدهُداً صغيراً رائعَ الألوانِ جميلَ الشَكل، يبتسِمُ رُغماً عنه مسحوراً بجماله وهو يطيرُ بخفةٍ وزهو حتَّى يَختفي وَسَطَ العمائِرِ الباهتةِ والخرابات القديمةِ التي تُحاوط عِمارته، ويتعجب كثيراً فقد مضت عليه سنتانِ في هذه المكان ولم يرَ هُدهُداً في أي ناحيةٍ قط! وكيف ستأتي الهداهد لتعيش في مدينة القاذورات هذه؟

ومضى هائماً حائراً، يكادُ ينطفئُ لولا بقايا من صورٍ قديمة. ووصلَ أخيراً.. جَلَسَ في الصف الطويل يملؤُ استمارةَ الوظيفةِ الجَديدة.. "يارب خذ بيدي".. هذه هي المرة الثالثة وقد بلغ به اليأس مبلغه، يودُّ لو يحصل علي أيةِ وظيفةٍ

تنقذه من وظيفتهُ القديمةُ اللعينة. تطلعت فيه السكرتيرة وقالت بانجليزيةٍ مُصطنعة:

- تفضَّل يا سيدي.. آخر غُرفة إلى اليسار..

وانَّضح كالعادةِ أنه غبيٌّ فاشلٌ لا يقدِرُ على شيء.

"فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ".

قرآن كريم.

****

لن يخرجَ للبحثِ عن عملٍ اليَوم..

سيتمشَّى قليلاً على الكورنيشِ فالجو جميلٌ مُشمس. عندما خَرَج من البابِ وجد ذلكَ الهدهد نفسه. في لحظةٍ راح يطير سريعاً وكأنه اكتشف عنه سراً عظيماً. تعجَبَ من وجودِهِ لكنَّهُ ابتَسَم فرِحاً ولَمَعت عَيناه. تابَعَ طريقهَ إلى الكورنيش، وهُناكَ جَلَس يتطلعُ إلى النيلِ في صمتٍ، تُداعِبُهُ نسماتٌ لطيفةٌ كأنها تدغدغ خلايا الحياةِ بداخِلِهِ فيضحَكُ داخلُهُ ضحكةً مُرهقة، تتطلَّعُ فيه فتاةٌ جالسةٌ هناك ثم تبتسم، ينظر إليها لثانيةٍ ويكادُ يَبتَسِم، لكنَّه يدير وجهه سريعاً وقد ضاق صدرُهُ فَجأة.

"إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ. وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لاَ يَهْتَدُونَ".

قرآن كريم.

****

عندما رآهُ في اليومِ الثالثِ واقفاً أمامَ بابِ العِمارة، في نفس الوقت الذي ينزل فيه، قرَّرَ أن هناك شيئاً غريباً يحدث!

اتصل بصديقهِ في الغربة، وراح يَحكي له عن الهدهد الذي يربِضُ أمام البيت كل صباح. سمع ضحك صاحبه في التليفون وهو يقول:

- أنت مهووسٌ للغاية، لماذا تعتقد أن كل شيءٍ لابد أن تكون وراءه أفكار ميتافيزيقية؟ لماذا تبحثُ عن السببِ في كل شيء؟؟ ألا يكفيكَ أن تَعيشَ جيداً وكفي دون أن تُتعِبَ نَفسك؟!

لم يقتنع بكلامِه. وعندما تعبت قدماه من المشي وجلس على مقعد على الشارع الرئيسي، راح ذِهنُه يفكر في الهدهد الجميل، وتذكَّرَ فجأةً صاحبهُ الذي يُدرِّس البيولوجيا في جامعة القاهرة، فاتصل به وقرر أن يقابله أمام بوابة الجامعة.

لعله يَفهمُ منه أيَّ شيء..

عندما التقى بصديقه القديم احتضنه طويلاً.. جلسا على مقعد أمام بوابة الجامعة، وراح يتطلع في "الروبِ" الأبيض كأنه قطعةٌ من نَهار، ويقول في ابتسامةٍ مُرهَقة:

- اشتقتُ كثيراً إلى أيام الجامعة!

وأدخله صديقُه إلى الحرم الجامعي، راح يتطلع طويلاً في جُدرانِ المباني العتيقة، ثم هتفَ في صديقه باسماً:

- وكأنَّ الهواءَ هنا أكثر نقاءاً!

ضحك صديقه وقال:

- لكنك تركت العمل اليوم من أجل أن تراني فقط! لا أصدق ذلك..

- لا تُذكّرني بالعمل.

ثم حكى له عن قصة الهدهد. نظر له قليلاً، وراحَ يبتسِمُ في خفوتٍ ثم قال:

- وماذا جعلكَ تعتقدُ أن مشكلتك في يد البيولوجيا؟

- أنا لم أعتقد أي شيءٍ حقاً! لكنني فقط لم أفهم، وخِلتُ أنك الخبير فجئتُ

إليك.

بدا صاحبه كأنه يفكر ثم قال:

- من المفروض ألا تجد الهدهد في المكانِ الذي تعيشُ فيه، فهو في الأغلب يكون قريباً من الأماكن الزراعية..

- وأنا قريبٌ من الأماكن الزراعية!

- أجل أعلم، لكن منطقتك أصبحت معزولة الآن بالمباني الخراسانية الكثيرة، الهدهد يمكن أن يعبر منها، لكن أن تراه مستقراً فيها كلَّ صباح!! هذا لا أفهمه!

ثم أردف بطيئاً في لهجة حائرة:

- إلا أن يكون قد بنى عُشًّا لصغاره قريباً من بيتِك..

- عُشًّا!

- ألم تقُل لي أن ثمة بيتاً مهدوماً يقع بجانب عمارتك، ربما وجده الهدهد مكاناً مناسباً ليضع فيه صغاره.

- ربما!

- هذا هو التفسير الأغلب. لكنني ما زلت لا أدري لماذا يظل واقفاً عند الباب ويغادر سريعاً عندما يراك!

"قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ. إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ".

قرآن كريم.

****

عندما رآهُ يطير مبتعداً في اليوم التالي كادَ عقله يطيرُ من شدة الحيرة، وتساءل هل جن جنونه ليفكر كل هذا التفكير من أجل طائر!.. تذكر تلك الأفلام عن الأمراض النفسية التي تصيب أولئك الذين يعيشون وحدهم لفترة طويلة. راح يقترب ذلك البيت المهجور، كان بيتاً مبنياً على الطِراز الكلاسيكي، وله نافذةٌ طويلة مغطاةٍ بالأتربة وما تبقى من خشبها البالي. أخذ يتطلعُ فيها طويلاً، ينظر بين ثقوبِ الخشبِ علَّه يرى أي شيءٍ، أو يَسمعُ أي زقزقةٍ لطير صغير، لكن لا شيء.. اقترب بيده وحاولَ إزالةَ الخشبِ عن النافذة، لكن الخشب كان قوياً جداً ومُستعصياً على الكسر.

يأِسَ مِن ذلك فهزَّ كتفيه وتابع طريقه إلى العمل، كان كل ما يشغل باله دائماً هو كيف يترك عمله بدون أن يخسر أسباب حياته، لكنه مع ذلك لم يفقد

تركيزه يوماً"؛ اليوم صار لا يقدر على التركيز وقد راح عقله يفكر في الهداهد الصغيرة! وجاء إليه مديره فأشار أن يتبعه إلى المكتب. عندما دخل أشار عليه بالجلوس وقال:

- أنت متعبٌ للغاية ومُشتت، لا تنسَ أن هذا أكل عيشك.. لا تضعِهُ بهذه السهولة.

- ولكن..

- سأتركَكَ تتصَرفُ اليوم، فكّر بنفسِك ومُستقبلِك، وغداً أريدكَ أفضل حالاً..

خَرَجَ هائِماً في الشَوارع لا يلوي على شيءٍ، حتى وجد مكتبةً أمامه، فدخلها، واشترى كتاباً عن الطيور.

"وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ".

قرآن كريم.

****

يضرُب العَرَبُ المثلَ بالهدهد في حدَّة البصر فيقولون: "أبصَرَ مِن هُدهُد". عكف على قراءةِ الكتابِ طوالَ اليوم، عن أنواع الطيورِ الكثيرةِ وحكاياتِ مُراقبي الطيور، وكيف أنهم جابوا الأخطارَ وساحوا في البلادِ مُتفقدينَ حياةَ

الطير المثيرة الشيِّقة. أنهى الكتابَ كُلُّه عندما كان آذان الفَجرِ يصدحُ في الأفق. قضى عشر ساعاتٍ متتابعةٍ يقرأ ولم يشعر. في اليوم التالي كان سعيداً جداً، وبَّخُه مديره على التأخير غير أنه لم يكترث، انهمك في العمل وهو يتمنى أنه ينتهى اليوم سريعاً، حتى يخرُجَ ليشتري كتاباً آخر عن الطيور.

"قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ. قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ، وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ. قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُك...".

قرآن كريم.

****

وقرَّرَ أن يكتُبَ قِصةً عن رحلة أحد مراقبي الطيور..

لقد كان يفكر بالكتابة منذ كان صغيراً، منذ أن كان يكتب القصائد الركيكة مكسورةَ الوزنِ عن القُدسِ والمَسجد الأقصى، وعن حَبيبَتِه التي تزوجتِ الآن. لكنه لم يجد ما يكتب عنه بعدَ ذلكَ فانقطعَ عن الكتابةِ لسنواتٍ..

والآن قد وَجد الموضوع، وراحَت الفكرةُ تملأ عَقلَهُ وتملكُ عليه كيانه، فاشترى رزمةً كبيرةً من الورَق، وجلسَ في غُرفته ليلاً يمسك بالقلم ويخط

على أول ورقةٍ بخطٍ كبير مُبتهجاً:

"الإنسانُ الطائِر"

رواية

****

في الصباح عندما رأى الهُدهُدَ يقفِزُ طائراً كاد يُحييه كأنه صديقٌ قديم، وحاول أن يُلقي نظرةً أخرى خلال خَشَبِ النافذة ولكن لا فائدة. في ذلك اليوم عمل بجد وظن رئيسه أن وضعه قد تحسن، لكن فيما تلا ذلك من الأيام لم يظلَّ على ذلك! كان يسهرُ طوال الليل أمام روايته، ويقوم في الصباح دائخاً حائراً، يتأخر عن العمل ويُوبخه المدير مرةً بعد مرة، ويُهدِّدُهُ وهو لا يستطيع أن يفعل أي شيء! تطارده شخوص روايته وأحداثها أثناء العمل فتدغدغه النشوة. والطيور.. الطيور في كل مكان.. على السقف.. في الدفاتر بجانبه على المكتب.. على شاشة الكومبيوتر أمامه. ويبتسم ويسرح تلقائياً..

بعد أسبوع طلبه المدير في مكتبه. قال في كلماتٍ متقضبة:

- للأسف لقد أثبتَّ لي ولكل من حولِكَ أنك شابٌ عديمُ المسئوليةِ ولا تَستَحِقُّ هذه الوظيفة، ولا يمكنني الاحتفاظ بك في الشركة بعد الآن..

وخرج من المكتب يتطلع حوله، يملؤه إحساس بالحيرة والحزن، لكنه ما إن غادر حتى غمره شعورٌ بالحريةِ والانطلاق، عاد إلى منزله سريعاً، وعكف على روايته يكتب بُمنتهى الصفاءِ والتَركيز وقد نسيَ أن يتناولَ غداءاً أو عشاءاً.

****

بعد أسبوع، دخلَ عليه صديقُ الغربة فوجدهُ عاكفاً كما هو على ورقه. الغرفة من حولِهِ مُترَّبةٌ داكنةُ الرائحة، والكراكيبُ تملؤُ الأرضَ حولهُ، وعلى الطاولةِ أطباقُ طعامٍ عطنٍ حامَ حولها الذباب. أسرع صديقه إلى النافذة ففتحها، تسربت أشعة الشمس إلى الغُرفة قوية كأنها تشتاق لها، وراح يقول بصوتٍ حاسم:

- أأنت مجنون؟! أتريد أن تُضيع نفسك بتصرفاتك هذه؟

وحمَّل الأطباق المتسخة إلى المطبخ ثم عاد يقول:

- ألا تعلم أن نقودَكَ شارَفَت على الانتهاء! ستكون شحَّاذا بعد ذلك..

فتح فمه ببطءٍ لكي يتكلم لكنه قاطعه قائلاً:

- لقد أرسلتُ سيرتك الذاتية إلى شركة أخري. غداً صباحاً ستذهب إلى المقابلة

فجهِّز نَفسَك..

نظر له طويلاً، ثم وضع القلم على الورقِ في هدوء. نظر له بوجهٍ خالٍ من الملامح، وزفر زفرة عميقة ثم هز رأسه علامة الإيجابِ في ضعف..

وفي الصباح التالي، قام باكراً فحَلق ذَقنه وأخذَ حماماً طويلاً، خَرجَ من الحمام فتعطر ولبس بذلته وكرافتته وحذاءه الأسود فبدا أنيقاً للغاية. لبس ساعته القديمة التي ألقى بها كثيراً في الدولاب. وقف أمام البابِ يُلقي نظرةً على روايته "الإنسان الطائر" ثم أسرع بالنزول..

عندما خرج من بوابة العمارة سَمِعَ صوت جلبةٍ غريب يصدر من البيت المهجور، ووجد أن قطعة من الخشب قد انكسرت! ظل محدقاً فيها لثوانٍ لا يفعل شيئاً، وما لبث أن رآه قادماً من بعيد.. الهدهد.. لم يخف هذه المرة ولم يطر مبتعداً، اقترب من النافذة الخشبية، وراح هو يتراجع قليلاً ويراقبه..

رآه يضرب بمنقاره سريعاً باستمرار وبمنتهى القوة والعزم، ذكره بأبيه حينما كان يربط الحبال على حقائب السفر. وفجأة توقف، ظل ساكناً لثوانٍ، ثم راحَ يطيرُ مبتعداً. تطلَّعَ فيه حائراً لا يفهم شيئاً، لكن حيرته لم تستمر. في لحظةٍ وجد النافذة تنبثقُ عن نبعٍ من الهداهد الصغيرة الجميلة، تتدفق وراء بعضها طائرةً حتى لتُحسَّ بأنَّ السِربَ لن يَنتهى. راحت ابتسامته تتسع، ثم تحولت

إلى ضحكات عالية، راح يقهقه منشرحاً مبهوراً وقد حدق فيهم وملأ المنظر قلبه سعادة وامتناناً عظيماً، استمر بمراقبتهم طويلاً حتى غابوا جميعاً في الأفق. ابتسم ابتسامة كبيرة ثم مضى في طريقه.

"فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ، قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ، وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِين".

قرآن كريم.

***